عامل مطبعة صغيرة يطبع «الشارع» لا تعلم السلطة

مطرقة الجلد في الشارع تعيد الخوف إلى أحياء كانت تعتقد أنها تجاوزته

تحقيق: نادية الحلبي وفراس العطار

في الساعة الثالثة فجر الثلاثاء ١٤ آذار، كان عامل المطبعة الوطنية الصغيرة في حي باب الرمان وحده في المبنى. كان يطبع ٢٠٠٠ نسخة من صحيفة «الشارع» قبل أن يأتي الموزعون. سمع طرقا على الباب الحديدي، ظنه أحد الزملاء، فتح. رأى ثلاثة رجال ملثمين، اقتحموا المكان، كسروا الآلة الكاتبة، وأخذوا ٣٤٠٠ نسخة جاهزة. ثم ضربوه بالعصي حتى فقد الوعي.

هذه الرواية ليست من خيال الكتاب. هي ما رواه العامل، واسمه الكامل عبد الرحيم قاسم الدباغ، لمحققين من نقابة الصحافيين المستقلين بعد أسبوع من الحادثة. وهي ما أكدته كاميرا مراقبة واحدة في مدخل المبنى، التقطت صورة غير واضحة لثلاثة رجال يغادرون المكان. وهي ما نشرته الصحيفة في عددها الذي صدر بعد يومين، تحت عنوان: «من يخاف من كلمة؟».

ما الذي حدث في تلك الليلة

بحسب محضر الشرطة الذي حرره الملازم أول سامر الخطيب، وصل البلاغ الأول عن الحادثة في الساعة ٣:٤٠ فجرا. وتوجهت دورية واحدة إلى المكان. وعند وصولها، كان العامل قد تمكن من الاتصال بأحد زملائه الذي أبلغ بدوره رئيس التحرير. لكن المحضر لم يذكر أن الدورية طلبت سيارة إسعاف، ولا أن أحدا من المحققين زار المستشفى الذي نقل إليه العامل لاحقا.

وقال العامل في إفادته إن المهاجمين لم يسرقوا أموالا، ولم يأخذوا أجهزة الحاسوب القريبة. أخذوا فقط النسخ المطبوعة والقوالب المعدنية للطباعة. وقال: «أرادوا أن يعرفوا أننا طبعنا، لا أن نعود». وهذه العبارة، بحسب المحققين، هي التي تجعل الحادثة أكثر من سرقة أو اعتداء عادي.

صحيفة بلا مقر دائم

تأسست «الشارع» في كانون الثاني ٢٠٢١، وتصدر أسبوعيا بطبعة ورقية من ١٦ صفحة. وليس لها مقر دائم. فهي تتنقل بين ثلاث مطابع صغيرة في أحياء مختلفة، وتغير موعد الطبع كل مرة. وقال رئيس تحريرها، في مقابلة مع المحققين، إن هذا الترحال ليس اختيارا، بل نتيجة تهديدات سابقة تلقاها المحررون بعد نشر تحقيق عن شبكات توزيع الوقود المهرب.

وأضاف أن الصحيفة طبعت في مطبعة الوطنية لأن صاحبها، وهو رجل في الستين من عمره، كان الوحيد الذي وافق على طباعة عدد واحد فقط. وقال: «لم نكن نريد أن نعلن عن أنفسنا، كنا نريد أن نقول كلمتنا ونختفي». لكن الكلمة، كما يبدو، وصلت أكثر مما كان متوقعا.

ردود الفعل الرسمية

أصدرت وزارة الداخلية بيانا بعد يومين من الحادثة، وصفت فيه الاعتداء بأنه «عمل إجرامي يستهدف حرية التعبير». وأعلنت عن تشكيل لجنة تحقيق خاصة. لكن نقابة الصحافيين المستقلين قالت إن البيان «يتحدث عن الجريمة أكثر مما يتحدث عن الضحية»، لأنه لم يذكر اسم العامل ولا مكان إصابته.

وقال النقيب سليم الحداد في مؤتمر صحافي عقده في ٢٠ آذار: «لا نريد من الدولة أن تحمي كل مطبعة صغيرة، نريد أن تحمي كل صوت صغير». وأشار إلى أن النقابة وثقت ٧ حالات اعتداء أو تهديد ضد صحافيين خلال العام الماضي، بينها حالة واحدة فقط وصلت إلى القضاء.

ما تغير بعد الحادثة

بعد أسبوع من الاعتداء، استأنفت «الشارع» الطباعة في المطبعة نفسها، لكن بعد أن ركبت باب حديد إضافي وكاميرا مراقبة. وقال رئيس التحرير إن العدد الذي صدر بعد الحادثة طبع ٤٥٠٠ نسخة، أي أكثر من ضعف التوزيع المعتاد. وأضاف: «أردنا أن نقول إن الخوف لا يغلق الجرائد، بل يفتح أبوابا أكبر».

لكن العامل نفسه، بعد أسبوعين من الحادثة، لم يكن قد عاد إلى العمل. وقال أحد زملائه إنه يعاني من كوابيس متكررة، وإنه لا يريد أن يرى أحدا يقترب من الآلة الكاتبة. وهذه ربما هي الخسارة الأكبر التي لا تظهر في أي بيان رسمي.

مقتل عامل مطبعة يثير مخاوف الصحفيين من عودة الترهيب

نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل وتحذر من أن استهداف المطابع يهدد حرية الرأي

بقلم: نادية الحلبي

في ساعة متأخرة من ليلة الثلاثاء الماضي، اقتحم مجهولون مطبعة صغيرة في حي باب الرمان وسط العاصمة، وأطلقوا النار على عامل كان يطبع أعداد صحيفة محلية مستقلة. وبحسب شهود عيان، فرّ المهاجمون بعد أن تركوا العامل ملقى على الأرض في بركة من الحبر والدماء. وقد توفي متأثرا بجراحه صباح اليوم التالي في مستشفى الرحمة العام، بعد أن رفض الأطباء إجراء عملية جراحية له بسبب حالته الحرجة.

وقال النقيب سليم الحداد، في مؤتمر صحافي عقده في مقر النقابة في شارع المطابع، إن «استهداف المطبعة ليس اعتداء على مبنى أو آلات، بل هو محاولة لإسكات صوت بأكمله». وأضاف أن النقابة وثقت ٧ حالات اعتداء أو تهديد ضد صحافيين خلال العام الماضي، بينها حالة واحدة فقط وصلت إلى القضاء. وأكد أن النقابة لن تسمح بأن يتحول الخوف إلى سياسة، وأنها ستتابع القضية حتى النهاية.

وتعمل المطبعة، التي تحمل اسم «دار النسيم للطباعة»، منذ عام 1998، وتطبع عددا من الصحف والمجلات المحلية، إضافة إلى كتب مدرسية ومطبوعات تجارية. ويعمل فيها 14 شخصا، بينهم 6 عمال طباعة. وقال أحد العاملين، الذي طلب عدم الكشف عن اسمه خوفا على سلامته، إن الفريق «اعتاد العمل تحت الضغط، لكن لم يخطر ببال أحد أن يأتي أحد ليقتل أحدنا بسبب الحبر».

وأشار الشاهد إلى أن المهاجمين وصلوا في سيارة بيضاء من دون لوحات واضحة، وأن أحدهم كان يرتدي قناعا أسود، بينما بقي الآخران عند الباب. وبعد تنفيذ الهجوم، فرّوا باتجاه شارع المطابع القديم، حيث اختفت آثارهم وسط الزحام. وقال: «سمعنا صوت الرصاص، ثم صوت المحرك، ولم نجرؤ على الخروج إلا بعد أن ابتعدوا تماما».

وأثار الحادث موجة واسعة من الغضب والحزن في الأوساط الإعلامية والحقوقية، حيث أصدرت عشرات المنظمات والنقابات بيانات تضامن وإدانة. وقالت منظمة «أصوات حرة» لحرية الصحافة، في بيان لها، إن «استهداف عامل المطبعة هو رسالة مباشرة لكل من يفكر في نشر الحقيقة، ولا يمكن السكوت عنه». وطالبت المنظمة بفتح تحقيق دولي مستقل في الحادثة.

من جهتها، أعلنت وزارة الداخلية أن فرقا خاصة باشرت التحقيق، وأن «جميع الاحتمالات مفتوحة، بما في ذلك الدوافع الجنائية». غير أن مصادر قريبة من التحقيق قالت إن المحققين لم يستبعدوا حتى الآن أن يكون الهجوم مرتبطا بعمل الصحيفة، التي نشرت في الأشهر الأخيرة سلسلة تحقيقات عن شبكات توزيع الوقود المهرب وعن تجاوزات في عقود النقل الداخلي.

وتعد هذه الحادثة الثانية من نوعها خلال أقل من عامين، بعد إحراق مخزن للورق في مدينة الزيتونة الصناعية في آذار 2021 الذي ألحق أضرارا بمطبعة أخرى. ويرى مراقبون أن تكرار مثل هذه الاعتداءات يهدد بخلق مناخ من الخوف الذاتي، حيث يلجأ الصحافيون إلى الرقابة على أنفسهم خشية أن يكونوا الهدف التالي. وقال أحد المراقبين: «عندما يصبح الحبر سببا للموت، فإن الكلمة الحرة تصبح ترفا لا يقدر عليه أحد».

ويأمل العاملون في المطبعة أن يؤدي التحقيق إلى كشف الجناة، لكن أحدا منهم لا يخفي تشاؤمه. وقال العامل الذي نجا من الهجوم: «سأعود إلى العمل، لأنني لا أعرف شيئا آخر أفعله، لكنني لن أعود إلى المكان نفسه. سأبحث عن غرفة صغيرة في بيت، وسأطبع هناك إن لزم الأمر». وأضاف بمرارة: «أريد فقط أن أعيش، لا أن أموت من أجل جملة».

(يتبع في الصفحة 11 و10 عمود 3)

(تابع من الصفحة 3)

الحدث، ط ١١، ٢٠٢٠، ص ٢٠٤.

(٧) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٨) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٩) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(١٠) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(١١) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(١٢) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(١٣) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(١٤) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(١٥) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(١٦) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(١٧) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(١٨) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(١٩) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٢٠) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٢١) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٢٢) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٢٣) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٢٤) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٢٥) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٢٦) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٢٧) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٢٨) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٢٩) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٣٠) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٣١) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٣٢) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٣٣) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٣٤) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٣٥) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٣٦) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٣٧) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٣٨) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٣٩) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٤٠) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٤١) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٤٢) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٤٣) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٤٤) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٤٥) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٤٦) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٤٧) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٤٨) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٤٩) «نقابة الصحافيين المستقلين تطالب بتحقيق عاجل في مقتل عامل مطبعة»، الشارع، ١٥ آذار ٢٠٢٢، ص ١.

(٥٠) «الشارع يطبع ٤٥٠٠ نسخة بعد الاعتداء ويتحدى الخوف»، الشارع، ١٦ آذار ٢٠٢٢، ص ١.